كأنه يعيش اليوم بيننا، يرى ما حلَّ بنا، ويحكي عن حقائق أوضاعنا، ويحلل سلوكنا ما بين النجاح المنتظر والفشل المتجذر، يعرف معرفة الخبير رداءة العقليات التي تقودنا، ويبصر وينعى غوغائية شعوبنا في تلقيها للأحداث والأشخاص؛ إنه د.حامد ربيع الذي يكتب منذ ثلاثين عامًا هذه الكلمة:

<u>منذ متى كان وضع عقل أمة كاملة في السجون إيذانا بالقضاء على إرادة المقاومة؟ وهل هذا يعني تحويل الفشل في السياسة الخارجية إلى نجاح؟</u>

انتبه إلى كلماته التالية واقرأها بعناية وتأمل:

((لم تعد السياسة الخارجية صنعة الهواة، لم يعرف الإنسان في تاريخه الطويل مرحلة بلغت فيها إدارة سفينة التعامل الدولي ما وصلت إليه اليوم من تعقيد. إن فهم الحقائق التي تحيط بنا –ولو في إطار محدود– في حاجة إلى حياة كاملة. ولا يجوز أن يخدعنا سماع أن أشخاصًا محدودي الثقافة والتاريخ العلمي، قدرت لهم القيادة العليا في مجتمعات عظمى كالولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي، أن حول القائد في تلك النظم مجموعة كاملة من الخبراء، والسياسة القومية في تلك الدول لا تصنعها إرادة فردية وإنما هي وليدة تقاليد ثابتة صاغتها مؤسسات قد لا تبدو واضحة للعيان ولكنها ذات فاعلية ثابتة.

هذه الحقيقة تزداد خطورتها عندما نرتقع إلى مستوى التعامل الإيجابي بما يعنيه من محاولة التحكم في الأحداث وقيادة سفينة الصدام الدولي بما يفرضه ذلك من ضرورة بناء تصور واضح للأهداف وأساليب للممارسة، ليس فقط في حالة النجاح بل وكذلك في حالة الفشل وحيث أن كلا من الافتراضين يملك درجاته المختلفة. وتزداد الخطورة عندما يجد القائد نفسه وقد تعين عليه أن يتخذ قرارًا سريعًا في عدة لحظات وهو قادر –ذلك القرار– على أن يحدد مصير أمته ومصير نظامه لعدة أجيال.

هذه الحقائق لا يريد أن يعيها المسئولون في العالم العربي فهم... ***<u>تارة يعتقدون أن خطابًا مملوءًا بالأكاذيب والسباب قادر على أن يغطي حقيقة الفشل</u>***. لم يكن السادات بذلك الخصوص أول زعمائنا ولن يكون آخرهم. **<u>منذ أن قدر للغوغائية أن تسيطر على العالم العربي أضحت هذه الأساليب قاعدة وتقليدًا</u>**.

وهم تارة أخرى يتصورون أن ضجيجًا إعلاميًا حول زيارة لزعيم أجنبي تستطيع أن تؤكد النجاح المنقطع النظير. ولعل جيلنا لا يزال يذكر زيارة نيكسون للقاهرة وهو مهزوم منكسر في دولته وهو الذي قاد إسرائيل لأن تستطيع أن تتخطى نجاح أكتوبر وأن تحيله إلى هزيمة وأن تجعل القاهرة مفتوحة أمام جحافل الصهيونية المتنمرة والشعب المصري بايقاع قيادته يرقص في الطرقات احتفاء بالزعيم الأكبر. وقد خرجت علينا تقاليد هذه الأمة بصورة ثالثة تعبيرًا عن هذه السذاجة، وهي عملية الاستئصال الجسدي للخصوم السياسيين.

منذ متى كان وضع عقل أمة كاملة في السجون إيذانا بالقضاء على إرادة المقاومة؟ وهل هذا يعني تحويل الفشل في السياسة الخارجية إلى نجاح؟

إن النجاح والفشل أكثر عمقًا من واقعة وأكثر بعدًا من حدث معين.

نابليون لم يهزم في ووتولو وإنما هُزم حقيقة قبل ذلك بعشرات السنين عندما ضرب في مصر ولم يستطيع أن يستقر في وداي النيل، وهتلر لم يقض عليه على أبواب موسكو، وإنما استؤصل نظامه منذ أن قدر له أن يحاول بناء أوروبا الجديدة من منطلق السيادة الألمانية في عصر وفي مجتمع لا يقبل مفهوم السيادة العنصرية.

النجاح والفشل هما نتيجة تطور متعدد المراحل متتابع الخطوات حيث الواقعة أي الحدث ليست إلا بلورة مؤقتة لمجموعة من المتغيرات السابقة لتعد لمجموعة أخرى من المتغيرات اللاحقة. ولذلك فإن النجاح أو الفشل لابد أن يستمد مصادره من جذور دفينة تتغلغل في أعماق الحركة السياسية وتتبع من باطن الوجود الجماعي ومن حقيقة الإيقاع القومي حيث يصير الزعيم أو القائد محركًا أو مكملاً لتلك القوى وحيث تصير قدرته الحقيقية هي التعبير عن تلك القوى بحساسية وبعد نظر، بحيث يكاد يصير خطابًا وصياغة لإرادة لا شعورية لا يقتصر في وظيفته على الإعلان عنها بل يتولى كبح جماحها أيضًا. أنه تعبير عن قوى حتى لو لم تعبر عن ذاتها تعبيرًا كليًا أو واضحًا فإنه هو قادر بلغة خفية بإحساس باطني بحساسية لا يملكها إلا الزعيم القائد على أن يشعر بها ويعلنها صيحة داوية معبرة عن الوظيفة التاريخية. السياسة الخارجية لا تنفصل عن السياسة الداخلية...

إنها أداة تنفيذ السياسة الداخلية ***وكل من يتصور أن سياسة داخلية فاشلة قادرة على أن تقود إلى سياسة خارجية ناجحة يرتكب مغالطة حقيقية...***

السياسية الخارجية هي أحد وجوه السياسة القومية التي لا يمكن إلا أن تستمد قوتها من جسد يملك عناصر المناعة وقيادة صالحة للأخذ بزمام الموقف وتطويعه نحو الأهداف القومية)).

د.حامد ربيع، نظرية الأمن القومي العربي، والتطور المعاصر للتعامل الدولي في منطقة الشرق الأوسط، دار الموقف العربي، 1984، ص 5-6.